

## وسائلنا في إنقاذ الطفولة

محاضرة أقيمت في معهد دراسات الطفولة

لحضرة صاحب العزة الدكتور محمد عبد المنعم رياض بك

إنى أعتقد أن العبرة بالتفكير لا بالكلام النظري ، فطالما سمعنا التصامح الجميلة والخطب الرنانة ولكن لم يكن لها من نصيب غير التعقيق يسمعه المحاضر والشكريقال للماح . فإذا أخذنا مشكلة اجتماعية كشكالة الطفولة مثلا ما استطعنا حصر المقالات والأبحاث والمجلدات التي تناولتها . أذكر رابطة الإصلاح الاجتماعي بالجهود المتواصلة التي بذتها في سبيل النهوض بالطفولة . فالمؤتمرات التي عقدتها كانت كلها تهتم بالطفولة . حتى ن منها مؤتمرا عقد للطفل . ولكن هل أنتجت هذه الأبحاث شيئا عمليا ؟ لأنكر أن هناك بعض نتائج عمية كمنشآت أقيمت لإصلاح الطفولة أو إسعادها ، ولعل أهمها ما أنشأته الرابطة كدار كفاية الطفل أو دار كفاية الفتاة ولكن ليس في هذه النتائج اقليلة ما يشفى العلة ، فهي إن أثمرت فإن ثمرتها لاتعمدى بضع عشرات أو مئات ، أما الآلاف بل الملايين فنصل اليهم يد الإصلاح الصغيرة . على أن صغر هذه اليد لا يعنى انعدام أثرها بل هي يد كريمة . نذكر لها أنها ابادة بشق الطريق والبادئة بزائرتة . ومهما كان الطريق طويلا ومظلما فإن للعول الأول فضل الابتداء في إزالة الصعوبات وللشعمة الأولى فضل الهداية . فكما ساعد نجم ضئيل على رتياد النياقي والقفار والوصول إلى شاطئ السلامة . وإنى يحضرنى في هذا المقام ماتحتويه أكثر أفاضل أطفال من ذكر ضوء عيد أو نجم لامع ينير الطريق ويبدد غياهب الظلام فيسير الطفل أو بطل القصة على هداه حتى يتجاوز الخطر ويصل سالما إلى هدف المنشود . وما دام هناك ضوء فالأمل قائم والسائر على هداه واصل لا محالة . فالعمل الخليل الذي تقوم به رابطة الإصلاح الاجتماعي هو هذا النور الذي تهدي به وإن بدا صغيرا ، وهو ذلك النجم اللامع الذي يرشد الضال إلى سواء السبيل . لذلك لا أشعر باليأس مادمت أرى هذا القبس ولا يتورنى لملل مادمت أشعر أن في السويداء رجلا وأن في النفوس رغبة صادقة للإصلاح . وهنا أختلف مع سعادة العشماوى بك فهو برغم جهوده الجبارة متشائم ، أما أنا فإنى متفائل خيرا ويزيد تفاؤلى كلما رأيت هذه الوجوه الصبوحه الفتية التي تجتمع في مثل هذه الدار إذ تسترشد من العلم في شؤون الطفولة وهي من أهم شؤون الإصلاح الاجتماعي في بلادنا إن لم تكن أهمها جميعا .

أجل لا يوجد في نظري من مسائل المجتمع ومشكلاته ما يسبق مسائل الطفولة ومشكلاتها فإذا ذكرت الطفولة ذكر المستقبل والجيل الجديد بل الأجيال المتابعة وإذا خبثت الطفولة خبث الشباب وخبث الرجولة في الأعقاب وأعقاب الأعتاب . لذلك قيل إن الطفل أبو الرجل ، واهم القوم في البلاد الغربية قاطبة بشؤون الاطفال حتى فكروا قبل الحرب في إقامة حزب دولي ينظم البلاد كلها يسمى حزب الطفل يكون له صوت مدوّ في كل بلد ، في صحفها وكتبها ومنابرها ومجالسها النيابية وحكوماتها ، وقد أتيح لي شرف الاشتراك في تكوين هذا الحزب وكان معهد نشأته في هولندا وهي بلد محايد كان أغلب الظن أنه سيبقى بعيدا عن سعي الحروب ولظاها . واحتضنت هذا الحزب ملكة هولندا باعتبارها الملكة التي تجمع الى عظمة الملك عظمة أخرى لا تقل عنها قدرا وهي عظمة الأمومة . ولكن الحرب قد عصفت بهولندا فباعدت بين ممثلي هذا الحزب في البلاد المختلفة . ويقيني أنه إذا ما وضعت الحرب أوزارها فيكون للطفولة الشأن الأكبر . فهي أداة تعمير العالم بعد ما جاءت به الحرب من خراب ودمار . فن الذي سيحل محل الرجال والشباب الذين راحوا ضحية هذه الحرب الضروس غير الأطفال . سيكون صراخ الطفل بعد الحرب هو بشير الإصلاح ودعوة العالم إلى طريق العمل الهادئ المنتج في ظل الوثام والسلام . وسنرى عندئذ في كل بلد بل في كل مجتمع حزبا قويا ينادى بحماية الطفولة ورعايتها حتى نخرج لنا سواعد قوية وعقولا صالحة تقود سفينة العالم بعد هذه العاصفة الهوجاء .

هذا هو الطفل . فكيف نصل إلى الإفادة منه ؟ كيف نخرج من المهده عاملا من عوامل الإنتاج المجدى والإسماع ؟ :

ربما أخرج مهد فرقا يخرج الناس من الجهل البهيم

ما الذي يجب أن تقوم به نحو هذا المهده حتى لانحرم من الفرقد الذي قد يخرج منه أعتقد أن أقوم سبيل لذلك هو إنقاذ الطفل من الولايات التي يتعرض لها في ذلك الدور الدقيق وهولا يزال غضبا رقيقا يتأثر بأقل مؤثر . فعملية إنقاذ الطفل من الأخطار التي يتعرض لها ، هي أولى الوسائل التي تؤدي إلى بقاء الطفل حيا قابلا للنمو والإصلاح . فعوامل الفناء التي تحيط به وتعمل على هدمه قوية جدا وهو ضعيف لا يستطيع لها دفعا ولا ردا . فإن لم يجد بجانبه من ينقذه من براثن هذه العوامل الفتاكة ذهب ضحيته وفقدت الأمة عاملا لوحفظ في فترة الطفولة الخطرة كان عمادا من الأعمدة التي يقام عليها بناء قوى متين .

وما دام إنقاذ الطفل من الأخطار المحيطة به هو الغرض الأسمى الذي يجب أن نضعه نصب أعيننا فلنبحث إذن في وسائله . ولكن قبل أن نتحدث عن هذه الوسائل يجب أن نشير إلى من يقوم بها . فلا صناعة من غير صانع ولا إنقاذ من غير منقذ . فعلى من يقع عبء

إنقاذ الطفولة؟ لاشك أن المسؤولين عن ذلك أولا هم الآباء والأمهات ثم المعلمون . فإذا قام الآباء والأمهات بواجبهم في حماية الطفل ووقايته من العاديات عند ما يكون في كنفهم وقامت المدرسة بواجبها ومعلموها بواجب وقايته أثناء الدراسة انقضت بسلام مرحلة الطفولة والمراهقة والشباب (وهو جزء من الطفولة أيضا) وتدرج الطفل فيها حتى يدرك الرجولة وهو صحيح البنية والعقل والخلق . فالتأتمون بالإشراف على الطفل في أدواره الأولى مطالبون برعايته رعاية تحوطه بسياج منيع يقيه الشرور والويلات ويتقذه في الوقت المناسب من الوهيدات المختلفة التي قد تتعرض فيها قدمه الصغيرة . فإذا أدرك هؤلاء خطورة مهمتهم وفهموا دقائقها أمكنهم أن يأخذوا بيد الطفل ويسلموه للجتمع سليما قويا صالحا للعمل . وإنه ليكفي في نظري أن يكون التأتمون على شؤون الأطفال من آباء وأمهات ومعلمين على درجة من الثقافة والإدراك تؤهلهم للقيام بهذا الواجب الجليل ليستنبطوا الطرق الناجعة للرعاية والإنقاذ التي تلائم حالة كل طفل وبعبارة أخرى لا يحتاج الأمر إلى بيان وسائل الإنقاذ وتعدادها إذا كانت رعاية الطفل موكولة إلى يد خيرة . فلنصر إذن بإرشاد الآباء والأمهات والمربين والمريبات حتى يتبينوا مسؤوليتهم نحو الأطفال وتركهم وشأنهم بعد ذلك يختارون خير الوسائل التي تؤدي إلى الغرض المنشود . أما بيان الوسائل وإيضاحها وشرح تفاصيلها فلا يعني فنيلا مادام المباشر لهذه الوسائل ليس أهلا لمهمته . فخير الوسائل إذن لإنقاذ الأطفال هو أن نكلهم إلى من يحسن رعايتهم وإنقاذهم . لهذا سأقصر كلامي في هذا الحديث على المقومات التي تجعل من الأشخاص الذين وضعهم الطبيعة أو الظروف في مركز رعاية الأطفال خير حماة لهم . أما شرح وسائل الحماية والإنقاذ فأمر تفصيلي يتناول طبعاً أبحاث الإخصائيين في كل طائفة من هذه الوسائل، وحديثي عن المقومات التي يجب توافرها في الآباء والمربين ليس موجهاً لطبقة دون أخرى فالأغنياء أو الفقراء أو متوسطو الحال كلهم في حاجة لهذه المقومات ليقوموا بتلك المهمة الكبرى، مهمة رعاية الطفولة وإنقاذها على أكل وجهه، وقد يكون الطفل في بيت شاغ يحيط به الترف والنعم ولكن لا يجد ما يحبه من أخطار الطفولة .

وأول المقومات التي تساعد على حسن رعاية الأطفال هو الحب، فلا يمكن توفّر شؤون الطفولة إلا إذا كان الحب رائد القائمين بهذه الشؤون، فهو أول شرط لقيام أبنوة صحيحة وحذا لو أنشئت معاهد أو دراسات لتعليم الآباء وغيرهم من القائمين بتربية الأطفال المبادئ الصحيحة التي تؤهلهم للإشراف على هذه الأرواح الطاهرة الصغيرة . وكل هذه المبادئ تقوم على الحب . لقد أعجبتني كلمة ألقاها المستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة بمناسبة عيد رأس السنة، إذ قال "إن كل ما يوصى به أهل وطنه هو الحب، ففيه حل أكبر المشاكل وأعقدها . فإذا سادت المحبة العلاقات بين الآباء والأبناء وبين المعلمين وتلاميذهم



ووضع نظاما للعناية بالأمهات والأطفال حتى الرضاعة والفظام قال تعالى :

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ \*  
وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ  
الرِّضَاعَةَ وَعَلَىٰ الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ \*

المحبة إذن هي الصفة الأولى التي يجب أن يتحلى بها كل من يتصدى لأمر تطفولة وهي كفيلة بإرشاده إلى الوسائل الناجسة لإفقاد من يرعاهم من الأطفال . أما المظاهر الخارجية لهذه المحبة سواء في ضروب العناية الصحية أو الطبية ، أو الاجتماعية التي تضمن سلامة الأمهات والأطفال ، أو حسن تغذيتهم أو نموهم فهذه مسائل تفصيلية تختلف باختلاف الزمان والمكان والعوامل الأخرى من اقتصادية أو جوية ، أو إقليمية . فالعناية بالأطفال وقت الحرب قد تختلف عنها وقت السلم ، والعناية بالأطفال في البلاد الباردة قد تتبع فيها قواعد صحية تتلاءم مع الجو البارد وغير ذلك . ومن أمثلة ذلك ما تتبع في إنجلترا أخيرا بسبب الحرب والغارات من إنشاء مستعمرات في اهواء الطلاق للأطفال تبلغ مساحة الواحدة منها نحو ثلاثة أفدنة كلها بساتين وأراض مزروعة يعني فيها بمئات من الأطفال تتراوح سنهم بين بضعة شهور وسبع سنوات ويعوضون فيها من الهواء الطلق التي ما أصابهم من صدمات بسبب الغارات ومن الغذاء الصحي المكوّن من الفواكه والخضراوات ما فقدوه من تغذية لحماهم من آبائهم وأمهاتهم . وقد راق لي وصف قدمت به إحدى الصحف الإنجليزية بيانا عن هذه المستعمرات بتسميتها "معركة الأطفال" .

ومن المقومات التي تؤهل للعناية بالأطفال أن يكون للقايمين على شؤونهم مقدرة على تفهم الأطفال وإدراك حاجاتهم والعمل على إسعادهم بروح غنية ونفس مطمئنة وخلق قويم وهذا لا يتم إلا بدراسة حالة الطفل سواء من الوجهة الصحية أو النفسية . فمن الوجهة الصحية تدرس مواضع ضعفه وأمراضه ويعطى لها العلاج الصحيح . ومن الوجهة النفسية تدرس عقلية وروحه . يجب أن يتولى المشرف عليه أمر قلبه ونفسه ويتعهد في تكيفهما برفق حتى يصل بالطفل تدريجيا إلى المستوى الصالح . ولا تتوافر الشخصية اللازمة لتكييف الطفل تكيفا صحيحا إلا إذا فهم الخلق الطبيعي للطفولة على حقيقته . فأكثر الآباء والأمهات لا يدركون درجة إدراك الطفل في كل مرحلة من مراحل الطفولة مع أنه يجب لنشأة الطفل نشأة سليمة أن تكون على علم بالمستوى العادي أو الطبيعي لنفسيته كما نعلم المستوى

الطبيعي لصحته أولئك كانه . وبهذا العلم نستطيع أن نقيه الزلل وأن ننقذه إذا طرأ ما يخل بتوازنه . وحسن فهم الطفل يجب أن ينظر اليه كشخصية نامية منتظرة في ضوء سنه ونموه فتراعى أدوار نموه وتطوره الجثائي والعقلي والعاطفي . وليس هذا بالأمر اليسير علينا نحن كجبار، بل هناك صعوبات تحول دون حسن إدراكنا للأطفال أولئك أننا كبار في تفكيرنا وعواطفنا ومستوى سلوكنا ودرجة التأثير علينا ، وكل هذه الأمور تختلف في الجبار عنها في الصغار . فالتصرف الطبيعي للطفل ليس طبيعيا لكبير السن .

والصعوبة الثانية أننا ننسى طفولتنا ، فالمواطف المختلفة التي خالجت نفوسنا أثناء الطفولة كالحبة والكراخ والحوف والغيرة لم تعد باقية في الذاكرة ، وإذا بقي شيء منها فإنه ناقص تنصبا كبيرا يجعلنا بعيدين كل البعد عن مستوى الطفل ، ومن هنا تنشأ صعوبة ثالثة ، وهي أن الطفل هو نوع من البشر له طابعه الخاص ويجب أن نفهمه بهذا الطابع لا بطابع عقليتنا الكبيرة المتقدمة ، كذلك يجب لمن يقوم على شؤون الأطفال أن يكون له من الشخصية ما يساعده على تعويد الأطفال عادات حسنة ، وهذا لا يتأتى الا بالأطمئنان والثقة ، فالأطمئنان هو أن يشعر الطفل من وقت ولادته بأن والديه يقبلانه كما هو ويرضيان به كل الرضاء باعتبارهما فردا من الأسرة ، وكما كبر الطفل احتاج لزيادة درجة اطمئنانه بأن يلقى فروعه أنه مهما فعل يستطيع أن يعود لداره ويقص ما وقع منه دون خوف الانتقاد أو العقاب وأنه يجب أن يثق دائما بأن والديه سيقدمان له كل مساعدة ضرورية ورشيدة لتنقذه من أية صعوبة يقع فيها ، لأنه من المسلم به أن الطفل كلما تقدم في السن وتعلم وجب أن يكون مسئولاً عن نفسه وأخطائه . والطفل الذي لا يرتكب خطأ أو يقع في صعوبة هو طفل حائف مضغوط عليه لا يستطيع في مستقبل أيامه أن يبني نفسه للحياة . فالأطمئنان يجب أن يقع أولا في نفس الطفل من جهة والديه وكما كبر اتسعت دائرة الاطمئنان إذ يجب أن يشعر بالأطمئنان إلى المدرسة وإلى الأساتذة وإلى الأمة ، وفي النهاية يجب أن يكون مطمئنا من ناحية نفسه أي يجب أن يشعر أنه يستطيع أن يعتمد على نفسه وأن يطمئن لكل ما يقوم به من عمل ، وبذلك يقابل صعوبات الحياة دون أن يشعر باختلال في التوازن أو بعدم ملاءمة بين نفسه وبين الوسط الذي يعيش فيه ، وكل هذا لا يتحقق إلا إذا نشأت في نفس الطفل الطمأنينة من الصغر . كذلك يجب أن تنشأ مع الطفل من صغره الثقة أولا في والديه ثم في أقرانه ومعاليه ، والمجتمع الذي يعيش فيه والبيئة المحيطة به بصفة عامة وكما نلاحظ يجب تمكين الثقة من نفسه لأنه اذا شعر بأنه غير صالح لشيء وغير واثق من نفسه فإنه لا يتقدم خطوة إلى الأمام بل قد يصبح عالة على المجتمع ويقع في حالة من التدهور لا يمكن إنقاذه منها ، فالآباء والأمهات يجب أن يقتنعوا أطفالهم بحسن اعتقادهم فيهم وتمام تقهرهم بأنهم أفضل الأولاد . وكثيرا ما يلجأ بعض الآباء إلى نقد أولادهم

نقدنا مستمرا ولومهم كلما فعلوا شيئا لا يتفق مع القواعد التي يجري عليها الكبار ومع طريقة تفكيرهم بل يؤلمونهم بالقول ذا كرين أنهم ينجحون من أعمالهم ولكن هذه الخطة ليست المثل فإنا تفقد الأطفال الثقة . قد يقال إن الاستمرار في مدح الأطفال قد يدخل الضرور في فؤوسهم ويخرجهم من تناول الإشراف ولكن ثبت من التجربة أن هذا الرأي غير صحيح فكلما أثنيت على الطفل بذل جهوده ليحصل على رضائك وكلما شعر الطفل بالثقة ثبتت أقدامه في طريق النجاح . أما اذا ضعفت ثقته فإن الأمر يختلط عليه ويملكه التردد والخوف .

نخرج من كل ذلك بأن أقوم سبيل لإنقاذ الأطفال من الولايات التي قد تعصف بهم هو أن يحسن القائمون عليهم أداء رسالتهم بأن يولوهما ما يستحقونه من محبة وعطف وأن يفهموهم على حقيقتهم ، وأن يكون لهم من الشخصية ما يساعد الأطفال على النمو والتطور في اطمئنان وثقة . فالأطفال يخرجون كما يريد آباؤهم والأبوان يعتبان طفلها جسمه وعقله ويتوقف نمو هذا الجسم والعقل على وسائل التربية التي يتبعها الوالدان فقد منح الله الأطفال قوة للنمو والتقدم وفي يد الوالدين تمكين هذه القوة من أن تؤتي ثمارها . فمن الوجهة الصحية يتوقف النمو الجثائي على ما يقدمه الوالدان من غذاء صحيح وعناية جسمية كافية . فإذا قصرنا في التغذية أصيب الطفل بأمراض نقص التغذية ، لهذا كان للطفل منذ ولادته حق طبيعي في الحصول على غذاء مناسب حتى إن بعض البلاد كالداانمارك نصت في دستورها على أنه لا يجوز لبنها أن يموتوا جوعا . والفرص من ذلك أن الجوع أو التجوع محرم في النظام الأساسي للدولة . وإذا قصر الوالدان في العناية الجثائية بالطفل أصيب بالهزال وضعفت مقاومته للأمراض ، كذلك يجب ألا يحرم الطفل من العطف والمحبة حتى تنضج عاطفته نضوجا تاما ولا ينشأ شادا ملتويا في عواطفه . أما النمو العقلي فيتم بإيجاد روح الثقة والاطمئنان حتى ينشأ الطفل معتمدا على نفسه متحملا مسئولية أعماله . ومما يساعد على ذلك أنه يجب أن ينتظر من الطفل أداء ما يتفق مع سنه ولا يطلب منه أن يعمل كالكبار فإن عقليته مختلفة عن عقليتهم .

فليتعلم الآباء والأمهات هذه المبادئ حتى يمكن أن يعهد اليهم بحمل هذه الرسالة السامية رسالة الأبوة أو الأمومة ، ومتى حسن الآباء والأمهات كان طريق الحياة أمام الأطفال ممهدا وطريق نجاحهم معبدا وقل تعرضهم لأخطار الحياة وويلاتها ووصلوا إلى الرجولة بروح غنية وعقل مترن سليم .

ومن الخطأ الاعتقاد بأن الطفل ما دام صغيرا فإن هناك متسعا من الوقت لإصلاحه ، فإن السنة الأولى من حياة الطفل هي أهم فترة يحصل فيها على التكييف الذي يحتاج إليه في حياته وكل سنة تمر بعد ذلك تقل في أهميتها عن السنة التي قبلها . لهذا يجب ان يبذل الجهد من

اول الامر اني يوائم الطفل تدريجيا بين دوائسه الفرزية وحاجات المجتمع على الايكه على ذلك بالقوة فلا يجبر على النمو والإدراك قبل الأوان ، فكل ما ينتظر من الطفل يتوقف على مقدرته الشخصية والوالدان السامحان هما اللذان يسمحان بطفلهما بأن ينمو نموا عاديا حسب طبيعته ويعترفان بحاجاته العاطفية أو الروحية ، فلعواطف حاجات لا تقل في أهميتها عن الحاجات الجثمانية ، ولترية الروح أكبر الأثر في تكوين الخلق، بل إن ما نشاهده في عدد من الكبار من اضطراب نفساني أو تردد أو خوف يرجع دائما الى حالة الصغر ، فمن الأقوال الصحيحة أن الاضطراب العصبي لا ينشأ في الكبر بل هو يبدأ دائما بالخوف والنفور أثناء الطفولة، فإذا أريد إتقاذ الناس من الاضطرابات العصبية وهي أساس ما يقعون فيه من فوضى وما يرتكبونه من حماقات ، فيجب تقصي أسباب مخاوف الأطفال ووضع وسائل لوقايتهم منها ، إذ لا يخفى أن الخوف من أول العواطف التي تتخالف نفوس الأطفال ويرجع سببه الى أى عمل مزعج أو صوت مستنكر أو شعور يعكر اطمئنان الطفل وإذا تكرر ما يخيفه يستمر شعوره بالخوف في كل الظروف خصوصا الجليد منها على نفسه وبتقدم السن بالطفل واستضاعته الكلام يمكن أن يفضى إلينا بمصادر مخاوفه وهي ترجع في أكثر الأحوال إلى خشية الكبار وفي طبيعتهم والدهاء وبوجه خاص والده ، ثم قد نجد أيضا من أحلام الطفل ما يفسر لنا شعوره الداخلي فأحلامه أبسط من أحلام الكبار ، فهو إلى ما قبل الرابعة من عمره يعلم عادة أحلاما مزعجة تدور مثلا حول الحيوانات المتوحشة وأفراسها ، ومن الرابعة إلى التاسعة أو العاشرة يحلم باللصوص وقطاع الطريق والأشباح والهياكل ، وكل هذه الأشياء تؤدي معنى واحدا في الحقيقة وإنما تختلف باختلاف البيئة ، فقد وجد أن الطفل الذي يعيش في منطقة نائية كأواسط إفريقيا يحلم بوحوش الغابات كما وجد أثناء الحروب أن الأطفال يحلمون بهجوم الأعداء وهكذا . وقد يؤدي هذا الخوف بالأطفال إلى التبول في فراشهم ليلا .

وإذا سئل الطفل من شخص يستطيع اكتساب ثقته عن شكل " البعيع " الذي أخافه في الليل فإنه في أحوال عدة يذكر أنه والده أو والدته . ومن المشاهد خصوصا في بلادنا أنه كثيرا ما يساعد أحد الوالدين على تخويف الطفل من الآخر كأن تصور الأم لطفلها والده في صورة مخيفة أو تصور الوالد الأم لطفله تصويرا مرعبا ، وكثيرا ما نرى ذلك في أحوال الخلاف أو الشقاق بين الأبوين فإن كلا منهما يسعى أن ينفر الطفل من رفيقه الآخر على أثر غضبه منه أو رغبته في الانتقام ، وقد يتهم أحدهما أحلام الطفل المزعجة ليفهمه أنها حقيقية ، والطفل لا يستطيع التمييز بين الحقيقة والخيال ، والوالدان في هذه الحالة يفتقدان عن حقيقة ثابتة وهو أن المجنى عليه في كل ذلك هو الطفل البريء فان خوفه من أحد والديه يرى في نفسه النفور . فيكبر مضطرب الأعصاب كثير المخاوف ، فهما نشأ من خلاف بين الأبوين فإن الطفل يجب أن يكون بعيدا عن أثر الخلاف مطمئنا إلى كليهما بحيث يستطيع أن يحدسهما

عن كل ما يخالج نفسه ويقص عليهما كل مخاوفه دون حذر أو نجل ، فان الخوف الذى يكتمه الطفل قد يكبر فى نفسه ويزيد فى أثره السيئ ما يكتنفه من شعور بالمذلة ويؤدى كل ذلك إلى اضطراب نفسانى فى مستقبل أيامه .

على أنه يجب الحذر من التطرف إلى ناحية أخرى ، وهى تدليل الطفل ، فإن بعض الآباء والأمهات يعطون لأولادهم من الحنان أكبر مما يحتاج إليه ، بل أكثر مما يجب ، إذا مرض أو أصيب بتوهم بسيط كبر الأمر على الوالدين وأشد قلقهم فيقاق الطفل بدوره وهكذا فالحاد أو القلق الزائد يؤدى أيضا إلى اضطراب ، وينمو الطفل والثقة تنقصه ويصبح سهل الانفعال . وهناك نوع آخر من الآباء والأمهات يترددون بين التسوية والحنان فيخرج أولادهم حيارى مشوشين نافرين . لو استطاع إذن كل أب وكل أم وكل معلم أو معلمة أو مشغل بشؤون الصغرة أن يشاهد أثر انعامه غير السديدة أو أثر سوء المعاملة فى الكبار لأدرك ضرر وسائل التربية العقيمة وضرورة الابتعاد عنها .

وقد لا يطول الوقت لظهور أثر أسلوب المعاملة أو التربية فى تطور الطفل ، بل قد يؤثر عليه تأثيرا مباشرا فى دور المراهقة وهو دور خطر ، وصفته سيدة من سيداتنا المشتغلات بالمسائل الاجتماعية وهى : "السيدة زاهية مرزوق" بأنه دور انقلاب حاد لا فى الحالة الجسمية فقط بل فى الحالة النفسية والعقلية والاجتماعية ، وفى هذا الدور يبدأ الأبطال فى التطور ويأخذون تدريجيا مظاهر الكبار على أن تطورهم لا يسير على قاعدة واحدة ، فقد يكون سريعا ، وقد يكون بطيئا ، وليس للسن التى يبدأ فيها ميماد محدد ، فبعض الأطفال خصوصا فى مصر يبدأ المراهقة فى سن التاسعة والبعض يصل الى الرابعة عشرة بل السادسة عشرة ولما يبلغ المراهقة ولذلك يجب ألا تؤخذ السن معيارا للسلوك الطبيعى المنتظر من الطفل ولكن يجب أن يلاحظ أن هناك علاقة وثيقة بين التطور فى الجسم والأعضاء والتطور فى العواطف فنذ بدء اراعقة يدب التغيير فى كل الجسم ، وقد يكون سبب ذلك إفراز الغدد الصماء فيتغير الطول والحجم وينتج من النمو السريع بعض مشاكل منها قبح المنظر وأن العضلات والعظام قد لا تنمو بالسرعة ذاتها ، فهناك عضلات تنمو أسرع من غيرها ، وقد تمر سنوات حتى يصل بعض الأولاد والبنتات إلى درجة مقبولة من حسن التناسق ، ولكن فى فترة عدم التناسق يشعر المراهق بشيء من الحيرة وقد تتعرض صحته لبعض التأثيرات فتعيب بسرعة ولا يستطيع المتابعة على المذاكرة خصوصا فى الليل ، وهنا تعرض مسألة لا يلتفت إليها كثيرا وهى تقدير الألعاب الرياضية التى تلزم فى سن المراهقة ، فقد يكون الإفراط فيها مضرا فى تلك الفترة . كذلك تتغير قوة المقاومة للأمراض ، ويقول أهل الطب إن فترة المراهقة تزيد المناعة ضد بعض الأمراض كالبرد العادى فتقل إصابة الأطفال بأمراض الزكام والبرد بعد العاشرة مع كثرة تعرضهم لها قبل هذه السن ، ولكن تقل المناعة لأمراض أخرى أشد خطورة كالسل ، وهنا تعرض

مسألة أخرى وهي ضرورة الاهتمام بوقاية الأطفال في سن المراهقة من هذا الداء الوبيل، فكما أن للكهولة أمراضها كأمراض القلب أو السرطان فإن الشباب مهتدد بذلك المرض التناك الذي يسمونه بالموت الأبيض ولكن من الممكن طبعاً الوقاية منه قبل وقوعه، ولهذا يجب أن تكون محاربه عنيفة وقوية لأن الأمل في نجاحها كبير، ففى بعض البلاد خصوصاً في أمريكا يخصص أسبوع كل عام لفحص السل فحصاً مبكراً يسمونه *diagnosis week* early في كل المدارس، وهناك طريقة يعرفها الأطباء وهي حقن الأطفال بمادة تسمى توبركولين *Tuberclin* وهي مأخوذة من ميكروبات السل. فإذا ظهرت بقعة حمراء دل ذلك على أن الطفل أصيب بالداء وإن لم تظهر كان في ذلك ما يدل على حسن صحته. وهذه هي الطريقة الوحيدة على ما أعلم للتحقق من سلامة جسم الطفل من ميكروب السل في هذه السن ويتم الشفاء بشيء من العناية اللازمة. وفي ظهور الميكروب ما يفيد أيضاً بالنسبة للكبار من أعضاء العائلة أو يدل على أن أحد أفرادها مصاب بالسل، وقد يكون في ذلك ما ينبه للعلاج في الوقت المناسب. وإذا فحص الطفل ووجدت النتيجة إيجابية أمكن فحص رتيبه بالأشعة للتحقق من مدى سلامتها، هذا الفحص من الأهمية بمكان ويجب أن تعنى به المدارس وأعتقد أن نظام الصحة المدرسية سيتوفر على هذه العناية.

هنا في سن المراهقة يجب أن يستمر الاطمئنان والثقة لدى الطفل، بل يجب أن يشعر بأن شخصيته قد بدأت وأن له شيئاً من الاستقلال والحرية فلا يكره على شيء لا يقتنع به فإن الإكراه لا يفيد شيئاً. هل نستطيع إكراه طفل على المذاكرة وهو لا يرغب فيها أو نستطيع منعه من التورط في صعوبات خارج المنزل بالضرب أو بالشغب، كلا! وكل ما ينتج الإكراه هو النفور والميل للثورة، وأقوم سبيل لمعاملة المراهق أن يفهم والده أو والدته كل ما يتعلق بنفسه وبجسمه وببيئته حتى لا تصل إليه معلومات خاطئة من الغير ثم يعود على الاستقلال وعلى تحمل المسؤولية مع إمكان اللجوء إلى الأب أو الأم في أى وقت للاسترشاد برأى مجرب سيم فإن الطفل في دور المراهقة يحتاج إلى الاسترشاد ولكنه لا يذهب عادة إلى أبويه أو معامه وهم أجدر الناس وأقدرهم على إرشاده. وقد أظهرت أبحاث أن المراهقين كالكبار كثير ما يكرهون النصيحة التي تقدم على ما يجب عمله وما لا يجب، وإنما يفضلون تحدث مع شخص يتقون برحاحة رأيه ليبين لهم كل شيء أو يوضح لهم كما يقول الانجليز: *the whole picture* متى عرفوا ذلك استطاعوا حل مشاكلهم بأنفسهم ويصلون غالباً إلى حلول مقبولة. وقد تطرأ في المراهقة صعوبات يتورط فيها الأطفال ويرجع ذلك غالباً إلى عدم تعويدهم أثناء النصف على الاعتماد على النفس والمسئولية فلم يحضروا لدور المراهقة بتعود الاستقلال عاماً فعاماً فإذا أصبحوا وزمامهم في أيديهم لدرجة ما وقفوا حيارى أمام هذا الاستقلال ولا سبيل لإتقاذهم من هذه الحيرة إلا إذا وثقوا في والديهم أو اطمأنوا إليهم

وصارحهم بصعوباتهم . ومن المهم أن يعطى الأب أو الأم فرصة لطفلهما أن يصارح بما لديه من صعوبات لأنه قبل كل شيء فرد في المجتمع وكما أن للنشاط المدرسي أهميته فكذلك للنشاط الاجتماعي فإذا لم يظهر اهتماما بالمجتمع الذي حوله يتفق مع سنه فهذا فشل لا يقل عن فشله في الحساب أو الكيمياء بل بالعكس يتوقف النجاح في سن المراهقة إلى حد كبير على استعداد الفرد للانسجام مع المجتمع socialisation فليساعد الآباء والأمهات على الوصول إلى هذه الانسجام بالمناقشة الودية والاستمرار في اكتساب الثقة فإذا لم ينجح الأب أو الأم في تذليل صعوبة طرأت على طفليهما أو صلاح موقف من المواقف ، ففي هذا ما يدل على أن لدى الطفل أو الاب أو الأم عقدة نفسانية يحتاج إلى معونة خارجية تساعد على تسمية الموقف . على أن يترك جانبا استعمال القوة فم تكن القوة يوما من الأيام وسيلة لاكتساب الاحترام أو للتقويم الصحيح وإنما يحترم الأولاد آباءهم وأمهاتهم بتنمية هذه العواطف لديهم لا بأكراههم عليها أو بإدخالها في نفوسهم إدخالا صناعيا .

محمد عبد المنعم رياض

### الحياة الاجتماعية في مصر بعد ربع قرن

”يسرنا أن نذكر أن الكلمة التي سبق أن نشرناها في العدد الماضي من هذه المجلة بعنوان ”الحياة الاجتماعية في مصر بعد ربع قرن“ لحضرة صاحب انعزة الدكتور محمد عبد المنعم رياض بك قد أنتجت أثرها فأنشئ فعلا مكتب للأبحاث المستقبلية يتوفر على دراسة المشكلات الاجتماعية على أساس علمي قائم على الإحصاءات الصحيحة، وكونت هذا المكتب لجنة تتولى الإشراف على عمله برئاسة حضرة صاحب السعادة محمد طاهر باشا ، ويكون المكتب وجها من وجوه نشاط الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية التي أقرت إنشائه في جمعيتها العمومية السنوية في انعقادها الأخير ، وستقوم بالعمل في المكتب هيئة فنية يرأسها الدكتور محمد رياض اشنوانى الإخصائى في الإحصاء .

وقد عقدت لجنة المكتب فعلا، وبمحت نظام العمل التي ستسير عليه في أبحاثها، وكان أول قراراتها تشكيل لجنة فرعية لبحث موضوع الأجيال الزرية وهو من أهم المسائل التي تهتم الحياة الريفية في مصر. ويرأس هذه اللجنة سعادة الأستاذ محمد العشماوى بك نائب رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعى ومن أعضائها حضرة السيدة ابخيلة حرم الدكتور حافظ عفيفى باشا وهكذا يمكننا أن نمضى حضرة واضع البحث المنشور بتحقيق فكرته بأسرع مما كان ينتظر .“